الإشاريّات الزّمكانيّة ومرجعيّتها الخطابيّة في ديوان"الكبريت في يديّ ودويلاتكم من ورق" لنزار قبّاني – مقاربة تداوليّة -

أ. مهدي مشتة - د. نعيمة سعدية
جامعة محمد خيضر بسكرة - الجزائر

الملخص :

ترتكز التّداولية كأساس على دراسة اللغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب. وتقوم على مفاهيم عديدة من بينها الإشاريّات التي تُعدّ أولى درجات التّحليل التّداولي وهي عبارة عن علامات لغويّة لا يتحدّد مرجعها إلّا في سياق الخطاب الذي وردت فيه.

و للإشاريّات أنواع رئيسية،تتمثل في: الإشاريّات الشخصيّة، الإشاريّات المكانيّة، الإشاريّات الزّمانية، وهذا ما تسعى إليه هذه المقالة بمحاولة إبراز إمكانيّة مقاربة هذا المبحث التداولي في الخطاب الشعري، بالتّركيز على الإشاريّات الزّمانيّة والمكانيّة ليحتضن ديوان" الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق " لنزار قبّاني مجال هذه الدّراسة .

الكلمات المفتاحيّة : التّداولية، الإشاريّات، نزار قبّاني.

***Résumé*:**

La délibération est basée sur l'étude de la langue et son utilisation dans le cadre de la communication. Elle est basé sur plusieurs concepts, dont « El echariat », qui est le premier degré d'analyse délibérative, qui est représentée par des signes linguistiques n'est pas déterminée par sa référence sauf dans le discours qui a reçu. Les principaux types d'Echariat, sont : El echariat personnelle, El echariat spatiale et El echariat temporelle. Ce dernier type est ce que cet article cherche à mettre en évidence la possibilité d'essayer d'aborder ce sujet dans le discours délibératif poétique en se concentrant sur El echariat spatiale et temporelle pour mettre en oeuvre le Diwan " j'ai une allumette dans la main,et vos piètres nations sont en papier" de Nizar Qabbani, qui est la portée de cette étude.

mots-clés: *Pragmatique, Deixis, Nizar Qabbani*

توطئة:

الإشاريّات (الرّموز الإشارية) أولى درجات التّحليل التّداولي على حدّ تقسيم الهولوندي هانسون*(hanson)[1]، وهي عبارة عن علامات لغويّة لا يتحدّد مرجعها إلّا في سياق الخطاب الذي وردت فيه ذلك؛لأنّها خالية من أيّ معنى في ذاته فـ« هذه التي عندما تكون خارج الاستعمال اللغوي لم يكن لها معنى محدّد في ذاتها، ويتحدّد معناها عند تضامها مع ضمائم أو قرائن في سياق تركيب، أو نصّ معيّن، و تتحدّد إشاريّتها بمعرفة المرجع الذي تحيل إليه »[2].

وإذا كان بنفنست (Benveniste) يرى « أنّ اللّغة بوصفها نظاما مجرّد لا تتحوّل إلى كلام حقيقيّ أو إلى نصّ أو خطاب إلا بواسطة عمليّة القول ذاتها،وهي ليست جوهريّة في صيغة النّص ودلالتها؛ بل إنّها أيضا وراء بنية وحدات لغوية تعبّر عن مفاهيم إنسانيّة أساسيّة كمفهوم الشّخص والزّمان والمكان»[3]، فإنّ أرمينيكو (F. ARMINIKO) تؤكّد على أهميّة هذه العلامات الإشاريّة حيث أنّه«لا يمكن للاستعمال التّواصلي للّغة العادية أن يتخلّى عن التّعابير الإشاريّة ولضرورتها من الأجدى معالجتها أي إبراز كيفيّة دخول السّياق الذّي توجد فيه مرجعيّتها ضمن تحديد مرجع الجملة »[4].

فالسّياق (Contexte) كأحد أهم المرتكزات التي تستند عليها التّداولية أداة إجرائيّة تؤدّي« دورا هامّا في كشف مقاصد المتلفّظ بالخطاب، وتوضيح نواياه الظّاهرة والخفيّة من أجل إفادة السّامع معنى يتوخّاه من خطابه»[5]،ولا يقف دور الإشاريّات في السّياق عند الإشاريّات الظّاهرة فقط ؛بل يتجاوزه إلى الإشاريّات المستقرة في البنية العميقة للخطاب،وتكون ذات حضور أقوى أثناء التّلفظ الذّي يصدر من ذات بسمات معيّنة ؛وعليه تكون«الإشاريّات هي تلك الأشكال الإحاليّة التي ترتبط بسياق المتكلّم مع التّفريق الأساس بين التّعبيرات الإشاريّة القريبة من المتكلّم،مقابل التّعبيرات الإشاريّة البعيدة عنه»[6]،ونُلفت الانتباه إلى أنّ المرجع الذّي يرتبط بتأويل هذه المبهمات كما اصطلح عليها النحاة العرب تتغيّر بتغيُّر السّياق الذي ترد فيه،والإشاريّات أنواع رئيسة،ولكلّ نوع دوره في الخطاب،و«إنّ تعيينها خصيصة لغويّة جاءت من أمرين: أحدهما معناها المعجمي الذي استقرّ في الاستعمال ؛فصارت تعرف بمعان خاصّة والآخر قصد المتكلّم والمعرفة والخبرة المشتركة بين المتكلّم والمخاطب »[7]، وعمليّة التّلفظ لا تتمّ دون حضور الأدوات الإشاريّة

الثّلاث و هي:(الأنا،الهنا، ا لآن)،ويمثّل كلّ صنف نو عا من الإ شاريّات و هي:الإ شاريّات الشخصيّة،المكانيّة،الزّمانية،وهي موجودة أصلا في كفاءة المرسل اللغوية باعتبارها«أولى الصّيغ التي ينطق بها الأطفال،وتستعمل للإشارة إلى الأشخاص من خلال التّأشير الشخصي person dixis(أنا،أنت)أو إلى المكان من خلال التّأشير المكاني spasutal dixis (هنا، هناك)أو إلى الزّمان من خلال التأشير الزّماني temporal dixis (الآن، أنذاك) وتعتمد جميع هذه التّعابير في تفسيرها على المتكلّم ومستمع يتشاركان في السياق ذاته»[8]،وهذا ما يُكسبها صبغتها التّداولية،أي إلى العلاقة التي تربط الإشاريّات بالسياق حيث أنها«تنتسب- الإشاريّات - إلى حقل التداوليات لأنها تهتم مباشرة بالعلاقة بين تركيب اللّغات والسّياق الذي تستخدم فيه»[9]. تنقسم الإشاريّات إلى ثلاث أنواع رئيسة يعتمد في فهمها على مجموعة معلومات ترتبط بالسّياق الذي تستخدم فيه ولا يستطاع إنتاج ها أو تف سيرها بم عزل ع نه،لأنّ الف كر الإ شاريّ ف كر إدرا كي وإحالا ته مرتب طة بالسّياق»[10]،والإ شاريّات بأنواعها الثّلاث تعبيرات تُحيل إ لى مكوّنات السّياق الاتّصالي،وهي المتكلّم والمتلقّي،وزمن المنطوق ومكانه فإذا«أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات،إذا ما وردت في مقطع خطابي استوجب منّا ذلك معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإ طار الزّماني والمكاني للحدث اللّغوي»[11]،و«يعتمد اختيار نوع معيّن من تعابير الإ شارة دون غيرها بشكل كبير على مقدار ما يفترضه المتكلّم من أنّ السّامع يعرف ذلك الشّيء المشار إليه في إطار بصري مشترك »[12]،وهذا ما سيسفر عنه البعد الإشاري الزمكاني لديوان **"الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق"***في استجلاء العلاقة التّواصليّة بين المرسل،وهو الشّاعر في حدّ ذاته من خلال قصائد ديوانه التي غالبا ما تُعبّر عن مناسبة طارئة، أو حالة نفسيّة تَنبُع من أعماقه حين يتأثّر بحدث معين،أوقد تكون أيضا محطّة يُعبّر فيها" نزار قباني"*عن مجموعة رُؤى أومواقف تجاه قضيّة ما مُبديا رأيه الصّريح،وذلك باعتبار الشّاعر فردا يتفاعل مع أشخاص آخرين ضمن مجموعة من المعطيات السّياقية بنقل خطابه المتعدّد الأبعاد إلى المرسل إليه.

أوّلا: الإشاريّات المكانيّة :

هي عناصر إشاريّة تدلّ على أماكن يعتمد استعمالها،وتفسيرها على مكان المتكلّم وقت التكلّم،و بذلك«يتأسّس المكان في تلك النّقطة من الفضاء التي يتوا جد فيها – المتكلم – أثناء

الحديث(لحظة التلفظ) »[13]،أوعلى مكان آخر معروف للسّامع والمخاطب،ولا يمكن للمتكلّم أن «ينفكّ عن المكان عند تلفظّه بالخطاب،وهذا يعطي الإشاريّات المكانيّة مشروعيّتها،وإسهامها في الخطاب ... وتقاس أهميّة التّحديد المكانيّ بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة أنّ هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى المكان إما بالتّسمية ...وإمّا بتحديد أماكنها من جهة أخرى »[14] وقد استخدم نزار قباني في ديوانه اسم الإشارة الدال على المكان في مواضع متعدّدة ليعبّر به عن مقاصده المختلفة، ويفصح عنها في صورة قيم فكريّة،واجتماعيّة تُعبّر عن أزمة نفسيّة يُحسّها الشّاعر،وهو يحاول التّكيّف مع مجتمعه،وظروفه علما أنّ أسماء الإشارة في عمومها مرتبطة جليّا «بأهداف المتكلم(مثلا تعريف شيء ما)وبمعتقدات المتكلّم (أي فعل يتوقع من المستمع عرفة ذلك الشيء بالتحديد) في استعمال اللغة »[15]؛لذلك نجد نزار يشير بها في الديوان إلى وصف الحالة المتدهورة للبلاد العربيّة يقول الشاعر[16]:

هذي بلاد أقفلت أبوابها
وألغت التّفكير عند شعبها
هذي بلاد تطلق النّار على الحمام
هذي بلاد
ما بها مسيرة تمشي
ولا أعراس .

فاستعمال الشّاعر لاسم الإشارة "هذي" المشار به إلى "البلاد" يدلّ مكانيّا على شدّة ارتباطه ببلاده، وقضاياها،وحرصه الشّديد على الالتزام والتّعبير عن معاناتها،وكما يحيل إلى قيمة تداولية وهي:وعي الشّاعر بحالة البلاد العربيّة،وما تئنّ من شتّى أنواع الظلم والاضطهاد من جهل،وخيانة ومصادرة للحريات وغيرها من ألوان البؤس والشقاء التي تفنّن الحاكم في حبكها بكل دقّة وإتقان.

ومع اسم الإشارة الدّال على المكان وقصيدة عنوانها " هناك بلاد" يعطينا نزار صورة فوتوغرافيّة لوضع البلاد العربية فمن خلال عنوانها،الذي استخدم فيه اسم الإشارة "هناك" الدّال على المكان البعيد تُوحي بأنّ البُعد المكاني له يصاحبه بعد نفسي،ذلك«أنّ المتكلّم يميل إلى معاملة الأشياء

البعيدة ماديا على أنها بعيدة نفسيّا»[17]، والشّاعر يُشير بهذا الاسم إلى بلاد هرمت من حزنها وألمها،بلاد أسّسها حاكم قاس عديم الرّحمة ميّت الضّمير حريص على اضطهاد شعبه وجعله يعيش حالة عدم الأمان، والشّعور بالاستقرار يقول في أحد مقاطعها معبّرا:

هناك بلاد تخاف على نفسها

من هديل الحمام

وتستنفر الجيش

لكي تستعدّ لقتل القمر

و بما أنّ الكتابة الشعريّة وخزة سامّة لنظام الحاكم الجائر فلن تسلم منه أيضا يقول[18] :

هناك بلاد

ترفض أن تمنح الشعر

تأشيرة السفر .

فسُلطة الحاكم تسعى في كدّ لطمس الكتابة الشعرية ،لأنها تحمل فكرة نبيلة، ونزيهة توجّه لتطلق سهاما على قتلة الشعوب، والخونة خانقي الحرية الفكرية، ولأنّها تصدح بنفس المقهورين لتُعبّر عن وضع بلادهم يقول نزار[19] :

هناك بلاد ...يشيّد السلاطين فيها

ألوف الجوامع

ولا يقطعون فروض الصلاة

ولكنّهم يقطعون الرقاب .

فقد دلّ اسم الإشارة "هناك" في هذا المقطع على طبيعة هذه البلاد والتي فيها حكّام لا يريدون لشعبهم أن يفكر بأمور وأشياء لها علاقة بالوطن ،لذلك سلّطوا سيف الحجّاج على الرّقاب لكلّ من تُخوّل له نفسه التّفكير في ذلك .

وتظهر القيمة التّداوليّة للإشاريّات المكانيّة في الديوان حين تتفاعل الشّخصية(الشاعر)مع الأماكن المشار إليها فتصبح فضاء تصبّ فيه تجاربها الشّخصية،ومن المعلوم أنّ نزار قبّاني كان

دبلوماسيّا،وعمله في هذا المجال سمح له بالتّجوّل في بلدان العالم فذكر أماكنها في قصائد الديوان ومن شواهد متفرّقة في المدوّنة قوله[20] :

هل اختفت من لندن
باصاتها الجميلة
ها هم بنو تغلب
في سوهو
وفي فكتوريا

و كذا قوله[21] :

تقول لي سائحة شقراء من فرنسا
بلادكم أجمل ما شاهدت من البلدان

وغيرها من البلدان الأجنبيّة التي اصطدم بها الشّاعر أثناء رحلته الدبلوماسية، إذ كان سفيرا لبلاده ممّا جعل ذاكرته كذاكرة آلة التصوير لا تنسى شيئا،ومن هذا المخزون الهائل تشكّل قاموسه الشعري،وأكّد العديد من الباحثين عن أهميّة المكان أنّها تكمن في« تكوين حالات نفسيّة خاصّة وذلك من خلال جعله ساحة للأحداث »[22]، وأماكن الغربة التي ذكرها نزار قبّاني في الدّيوان تظهر قيمتها التّداولية في إعطائها صورة للحالة النّفسيّة لدى نزار توضّح أنّه كان يعيش تمزّقا بين الوطن والغربة يقول[23]:

فلا نوافير فرساي
عوّضتني عن مقهى النوفرة
ولا سوق الهال
عوّضتني عن سوق الجمعة
ولا قصر باكنغاهم في لندن
عوّضني عن قصر العظم
ولا حمائم سان ماركو في فينيسا
أكثر بركة من حمائم الجامع الأموي .

فالشّاعر في هذا المقطع يؤكّد على أنّ أماكن ديار الغربة لم تعوّضه عن الفراغ النفسي النّاجم عن فراقه لوطنه الأمّ،وهو ما جسّدته طبيعة الانتماء للمكان في هذا المقطع فمن خلال تصريح نزار بطبيعة العلاقة التي تربطه بالأماكن المشار إليها من ناحية الألفة والغربة فالمكان الأمّ أو موطنه الأصلي هو المكان المحوري بالنسبة للشخصيّة ،لأنّه« المكان الأوّل الذي يجد فيه الإنسان نفسه،وهو عالم الشّخص الذّاتي يكشف خبايا نفسه،وهو مكان انجلاء فرديّة الشّخص وهومكان الألفة والحماية والسكينة »[24]، أمّا ديار الغربة فهي المكان المعادي بالنّسبة للشّاعر على حدّ تعبير باختين،و« هو المكان الشّبيه بالدّاخلي أوالضّيق ينكس على حالة الفرد نفسيّا ؛ هو المكان الذي يُحسّ بالضّيق فيه،وإن كان واسعا كتواجد شخص ما في بلاد الغربة؛فهما يحمل ذلك البلد من رحابة وامتياز يُعدُّ مكانا ضيّقا على نفسيّة المقيم فيه »[25] .

لذا فالشّام بلاد الشّاعر قد كانت حاضرة في الدّيوان بل لها دور بارز في تحريك مشاعر "نزار"،وحضورها يُبرز مدى التصاق الشّاعر بها،وخضوعه لها،يقول في مواضع متفرّقة من الديوان[26] :

ينطلق صوتي هذه المرة من دمشق
ينطلق من بيت أمّي وأبي
في الشّام تتغيّر جغرافيّة جسدي .

فقد صرّح الشاعر في هذا المقطع عن الأثر الذي تُحدثه الشّام في تفسية نزار لتصبح مصدرا لإلهامه الشّعري، الممزوج بكل مشاعر الاشتياق والمحبّة،ويقول "نزار" أيضا[27] :

أتجوّل في حارات دمشق الضّيقة
تستيقظ العيون العسليّة خلف الشبابيك
وتسلّم عليّ

ودائما في حديثه عن دمشق وما تحمله من دلالة معنوية لديه يقول[28] :

هذي دمشق، وهذي الكأس والراح
إنّي أحبّ وبعض الحبّ ذبّاح
أنا الدّمشقي لو شرّحتم جسدي .

فمن خلال المقطعين السّابقين نجد أنّ البُعد التّداولي لدمشق لم يتضّح إلّا بالعودة إلى السّياق الذي وردت فيه،والمتمثّل في حياة الشاعر،وما اعترا ها من ظروف فرضت أهمّيتها في استعمال الدّلالة السّياقية للمكان لتوضيح مقصود المتكلّم فبلاد الشّام هي موطنه الأول الذي تربّى وترعرع فيه،وهوما يُعرف عند مول(MOL) وروميز(ROMIR) في تقسيمهم للمكان بـــ«المكان عندي ويربطانه بالمكان الذي يمارس فيه الفرد سلطته،ويكون ذا علاقة أليفة،وحميميّة معه،يحسّ بامتلا كه،وحرية التّنقّل فيه كالبيت الذي تربّى،وكبر فيه،أوالأماكن الخارجة عن البيت،ولكنّها قريبة من نفسه»[29]؛ ممّا جعل بلاد الشّام عند قِرانِ عقدها مع نفسيّة الشّاعر تأخذ بُعدا طلليّا فتظلّ في عين الشّاعر منظرًا جديدا،وفي نفسه إحساسا متميّزا فيتحوّل المكان من دلالة جغرافيّة إلى أطلال شخصية،وهذا ليس غريب ؛لأنّ« تأثير المكان على حياة المبدعين موغل في التّاريخ الأدبي القديم الغربي والعربي ظاهرة الوقوف على الطّلل في الشّعر الجاهلي من أبرز التّجارب الإنسانية التي كشفت وجود صلة قويّة بين المبدع والمكان، ومنذ ذلك الوقت بقي المُبدع متعلّقا بالمكان الذي يكتب فيه وعنه »[30]، لذا يقول نزار[31] :

أعود إلى دمشق
لأبحث عن حبل مشيمتي
وعن الحلّاق الذي ختنني

ويُكمل الشاعر في استحضار ذكريات الماضي قائلا : [32] :

أعود إلى الرّحم الذي تشكّلت فيه
وإلى الكتّاب الأوّل الذي قرأت فيه
وإلى المرأة الأولى التي علّمتني
جغرافيّة الحبّ

ويشتاق الشّاعر لكلّ ما يربطه بالماضي فعودته إلى بلاده ألهمته،وألهبته قصائدا عصماء ممزوجة بأبجدية دمشقيّة يقول[33] :

أعود...
بعدما تناثرت أجزائي في كلّ القارّات

فبعد عروسة الزّيت والزّعتر
لم تعد تعجبني أي عروس في الدنيا
وبعد مربّى السّفرجل الذي كانت تصنعه بيدها
لم أعد متحمسّا لإفطار الصّباح .

والجانب الطّللي للشّام يظهر في المقاطع السّابقة من خلال ربط الشّاعر عودته بذكريات جميلة لا يمكن له نسيانها،هي ذكرى الأحبّة التي تعبّر عن موطن الصّبا،والطّفولة،والشّباب،وما إبراز ذلك إلّا ليكشف شدّة الشّوق،والغربة عن بيئته للشّام،وخاصّة إذا كانت حافلة بأحداث شكّلت،وكوّنت شخصيّته فـ« ما ندركه عن المكان هو جزء لا يتجزّأ ممّا نُدركه عن الشّخصية الّتي ترتكز في مكان وقوع الحدث،والتّحرك في مكان ما فالمكان إذن جُزء من تكوين الشّخصية،بل قد يُصبح جزءا من التّجربة الذّاتية بعد أن يفقد صفاته الواقعيّة ارتباطا باللّحظة النّفسية »[34].

كما ذكر الشاعر بعض الأماكن المحاذية للشام كذكره للأماكن المقدسة مثل قوله[35] :

أدخل صحن الجامع الأموي
أسلم على كل من فيه
زاوية ...زاوية

أو بعض الأماكن العمومية التي يسافر معها الشاعر[36]:

أتغلغل في سوق البزورية
مبحرا في سحب البهار
وغمائم القرنفل .

فمن خلال هذا يتبيّن لنا،ويتضّح تداوليّا أنّه مهما انتقلت الشّخصيّة عن موطنها الأصلي فإنّها تظلّ مرتبطة به بالرّغم ما يوفّره المحيط المُجاور من حاجيات إلّا أنّه يظلّ مرتبطا ببيئته الاجتماعية وبمكانه الطّبيعي الذي تمخّضت عنه أفكاره،وعاداته التي تنعكس على سلوكاته،وتعبّر عن هويّته وانتمائه .

وأهمية الا شاريّات المكانيّة على العموم تتّضح قيمتها التّداولية في أنّ الأ ماكن التي تشير إليها ليست في ذاتها،وإنّما بما تؤدّيه من وظائف يُسخّرها الشّاعر لمبتغاه،وبالتّالي فللمكان وظيفة أسا سيّة في ذ لك بمعنى أنّ وظيفته الديكور ية، أوالتأطيريّة تتلوّن با لدّوافع النّفسيّة فتصبح قالبا للحدث وللشّخصية.

ثانيا:الإشاريّات الزّمانيّة :

هي كلمات تدلّ على زمان يحدّده السّياق بالقياس إلى زمان التكلم، «فزمان التّكلم هو مركز الإشارة الزّمانيّة في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التّكلّم أو مركز الإشارة الزّمانيّة التبس الأمر على السّامع أو القارئ»[37]،فمثلا"يتجاوز مدلول كلمة اليوم في عبارة " بنات اليوم" دلالة هذا العنصر الإشاري إلى الزمن الكوني الذي يتحدّد بأربع وعشرين ساعة إلى أن يشمل العصر الذي نعيش فيه،فهذه الدّلالة الإضافيّة موكولة إلى السّياق الذي ترد فيه هذه العناصر الإشاريّة،هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه العناصر الإشاريّة قد «تكون دالة على الزّمن الكوني الذي يفترض سلفا... وقد تكون دالّة على الزّمن النّحوي،وقد يتطابقان في سياق الكلام،وقد يختلف الزّمن النّحوي عن الزّمن الكوني،فينشأ بينهما صراع لا تحلّه إلّا المعرفة بسياق الكلام»[38] فتعتمد الإ شاريّات الزمانيّة في تفسيرها على معرفة وقت الكلام فمن أجل تحديدها وتأويل الخطاب الذي وردت فيه تأويلا صحيحا«يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التّلفظ فيتخذها مرجعا تحيل عليه ويؤوّل مكونات التّلفظ اللّغوية بناء على معرفتها»[39]، ولتداولية المرجع الذي يصاحب هذه الأدوات فإنّ المرسل يلجأ في خطابه استعمال الألفاظ الدّالة على الزّمن، وهذا الاستعمال خاضع لما يقصده الشّاعر لأنّه زمن مبهم ولا يمكن للقارئ أن يدرك دلالته إلا بمعرفة السّياق الذي ورد فيه، ونمثل لذلك من الديوان بقول الشاعر[40]:

ما جاء حاكم لهذه المدينة
إلا دعا النّاس إلى المسجد
يوم الجمعة
وقال في خطبته العصماء
بأنّه من أولياء الله .

فـ"يوم الجمعة"دالّ على زمن معيّن، ولكنّه أهو في أوّل اليوم، أو في نصفه، أو آخره،و لكنّ دلالته اتّضحت من خلال السياق الذي ورد فيه، وهو ما دلّت عليه مفردتي" المسجد" و" خطبته" وأساسا عليهما تحدّد وقت يوم الجمعة، وهو وقت صلاة الظّهر أين يجتمع فيه المصلّون بشكل جماعي لأداء هذه الفريضة الدينية (صلاة الجمعة)،وهذا اليوم المقدّس بالنّسبة للمسلمين طعّمه الشّاعر بدلالة سياسية، فالمعلوم أنّ أداء صلاة الجمعة يأتي بعد الاستماع للخطبة يلقيها إمام،ولكنّها بالنّسبة للشّاعر خطبة من نوع خاصّ يُلقيها حاكم ظالم يعكف فيها لتقديم دروس تُثبّت خضوع شعبه،وتزيدهم إيمانا لسياسته الجائرة الّتي جعلها الحاكم تشريفاو ليس تكليفا،لذلك يقول نزار[41]:

يعمر الحاكم في بلادنا

ألف سنة .

فالدّلالة الزمنية " ألف سنة" تعبير مجازيّ عمّا تحمله من هموم، وأتراح أثناء فترة رئاسة الحاكم الطّاغي على شعبه الذي جعله يعيش يوما في مدة حكمه كأنه سنة، ونفسّر ذلك تداوليّا في أنّ الحاكم عمد في سنوات رئاسته إلى العبث بثروات،وقيم رعيّته دون رقيب،ولا حسيب ودون الاكتراث بالنتائج فقد أبدت أيّام حكمه للشّعب ما كانوا يجهلونه من أقصى درجات الجور،وأسوء أنواع الإذلال من أجل تحقيق أهدافه الشّخصية على حساب حقوق شعبه هذا الأخير أصبح يعيش جرّاء ذلك أملا مستحيلا، وحلما وهميّا لن يتحقق، وهو ما عبّر عنه الشّاعر في قصيدة" مقابلة تلفزيونية مع غودو" يقول في أحد مقاطعها[42] :

مازال غودو منذ مليون سنة

مرتديا معطفه

وحاملا أكياسه وقانعا أنّ هناك في المدى محطة .

فلفظة "مليون سنة"،وهي مسبوقة بالفعل "مازال" الذي يفيد الاستمرارية تدلّ تداوليّا على انتظار دون جدوى وسط يأس كامل للشعب،انتظار يقود الشّعوب المقهورة شيئا فشيئا إلى أن تشرب من كأس الموت دون تحقيق المبتغى،وهذا الانتظار اليائس تجسد في المقطع من خلال شخصية "غودو"ذلك المسافر الخفي والمنقذ المعوّل عليه،والذي طال انتظاره مدّة طويلة من الزمن وهو في أصله شخصيّة رجل منتظر يُعتقد أنّه سيأتي في وقت ما،وهو شبح لشخص غامض وهذه

الشخصية خرافية، فـ"غودو" لن يأتي أبد، وفيه دلالة على حالة الشعب البائسة التي ما هي إلّا نتيجة للاستبداد السّياسي وما شهده من تحطيم للبنى،والمقوّمات الإنسانيّة في كلّ مناحي الحياة لتخلق حالة تصاب فيها الشّعوب بالخمول،والتّراجع والانكماش،وأشدّها بلوة اليأس من المقدرة على التغيير،وليس هناك للشّعب من خيارسوى القبول والتعايش،والانتظارحتى يتغيّر قدره. ارتبطت الإشاريّات الزمانيّة في الدّيوان ببعض الأحداث التّاريخية،والتي عملت على استكانة الوضع الرّاهن يقول نزار[43]:

ونحن من يوم تخاصمنا
على البلدان
و النسوان
في غرناطة
موتى ولكن ما لهم جنازة

ففي تلفظ الشّاعر بكلمة (يوم) هي مبهمة، و غير معروفة، ولكنّها إشارة زمانيّة تسير في منحى تاريخي،والذي اتضّح في ذكر الشّاعر لغرناطة فيستحضر الحادثة التاريخية "سقوط غرناطة" وما نتج عنها،وبهذا تتضّح الدّلالة الزمنيّة للفظة "يوم" الواردة في المقطع، وهي 02 ربيع الأول من عام897 ه الموافق لـ02 يناير1492م،وهو تاريخ سقوط غرناطة*على يد القشتاليين حينها دبّ الضّعف في أوصال دولة الإسلام،وسرى الوهن في أطرافها وتبدأ مأساة الأمة الإسلامية هناك « مأساة تمثّل فيها الثّبات والتصارع ضدّ الفناء الذي كان يريده السّلطان الاسباني،لا فناء الأفراد بل قبله فناء وإفناء العقيدة، وإلغاء كل ما يتصل بذلك»[44]،وماستحضار "نزار" لذلك إلا تأييد على أنّه بسقوط بلاد الأندلس قد طُويت آخر صفحة من دولة المسلمين؛ومنذ ذلك الوقت على حدّ تعبيره موتى من دون جنازة، وذلك في أننا نحن-المسلمين- لا نستفيد من التاريخ،ولا ندرسه لأخذ العبرة وتجنب السبب المؤدي للهزيمة حتى لا نقع مرة ثانية،ولكن للأسف فعندنا العرب حقا أنّ التاريخ يعيد نفسه .

كما اصطبغت بعض الإشاريّات الزّمانية في الديوان بالتعبير عن الحالة النّفسية للشاعر اعتبار أنّ«الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحس بالزمن في حركته الذاهبة والآيبة،ويتأثر بهذه الحركة»[45] يقول نزار[46]:

أنا قمركم المشرّد ..يا أهل الشّام
فمن رآني منكم
فليتبرع لي بفراش ..و بطانية صوف
لأنّني لم أنم منذ قرون

لفظة "قرون"،جمع كثرة مفرده "قرن"،وهي توحي بأن الشاعر قضى مدة طويلة جدا بعيدا عن وطنه الأم،ودلالتها التّداولية تجلّت من خلال ربطها بتعبير الشّاعر عن حاله النّفسية إزاء نأيه عن أرضه،(أنا قمركم المشرّد،فليتبرّع لي بفراش،لم أنم)وهذه اللّفظة- " قرون"- توحي بشدّة معاناة نزار قباني، والأثر النّفسي الذي أحدثه الزّمن أثناء بُعدِ الشّاعر عن أرضه بتواجده في ديار الغربة،وأنّ تجربة الرّحيل عن الوطن بالنسبة إليه تعكس الحسّ الإنساني الصّادق له،والمتمثّل في وطنيّته النّزارية التي رسمتها مرارة الرحيل، وأنّ وطنه الشّام موجود بداخله وفي كيانه إلى الأبد. وانطلاقا من علاقة المتكلّم بالزّمن، فإنّ دراسة "بنفنست" (Benveniste) أفضت إلى تقسيم هذا العامل اللامرئي إلى ثلاثة أقسام*، وثانيها «الزّمن التّاريخي الّذي يمثّل الإنسان جزءا لا يتجزّأ من البيئة التي ينتمي إليها،وما دام كائنا حيّا يعايش مجموعة من الأحداث يمكنه أن يؤرّخ لحياته من بدايتها إلى نهايتها أو العكس،وذلك عن طريق الذّاكرة لتأليف ما يُدعى بالسيرة الذاتية»[47]،ومن أمثلة ذلك قوله[48]:

أعود إلى دمشق
لأبحث عن حبل مشيمتي
و عن القابلة التي رمتني في طست تحت السرير
وخرجت من بيتنا
في ذلك اليوم من شهر آذار عام 1923.

إنّ هذا المقطع يستحضر فيه الشّاعر يوم ولادته،ويعتبر لحظة ميلاده مميّزة،ودلالة اليوم الموجودة في المقطع هي: 21 من شهر مارس من عام 1923م تاريخ خروج الشاعر للحياة، و قيمتها التّداولية تتضّح في أنّ ولادة شاعرنا كانت في الفصل الذي تثور فيه الأرض على نفسها،وترمي فيه الأشجار كلّ أثوابها القديمة وكلّ ما يعرفه شاعرنا هوأنه يوم ولد« كانت الطبيعة تنفذ انقلابا على الشتاء وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها في انقلابها على روتين الأرض»[49] ،وبذلك ورث عن هذه الطبيعة الثّائرة الكثير من الجينات التي أثّرت فيه أيّما تأثير فكان شاعر الخطوط الحمراء...العنيد الثّائر، والصّامد كالصخر.

خاتمة:

لقد كشفت لنا المقاربة التّداولية للإشاريات المكانية والزمانية في ديوان"الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق"بعض ملامح المسيرة الشّعرية لنزار قباني الحافلة بالأحداث الاجتماعيّة والسّياسيّة والفكريّة،إذ عبّرت الإشاريّات المكانيّة عن حال البلاد العربية المتدهور بالإضافة إلى أماكن عاش فيها نزار فترة مُعيّنة من حياته، والتي كان لها تأثير على نفسيّته، وعلى شعره خاصّة بلاد الشّام مسقط رأسه،في حين تميّز استعمال الشّاعر للإشاريّات الزمانيّة عموما بالتّعبير عن شدّة معاناة الشّعب في وطنه نتيجة استبداد الحكّام .

الهوامش:

[1] «هانسون أول من جرب التوحيد بطريقة نظامية، و تجزئة مختلف المكونات التي تطورت إلى الآن بطريقة مستقلة و يتمثل هذا التوحيد، وهذه التجزئة في تقسيم التداولية إلى ثلاث درجات متتابعة : تداولية من الدرجة الأولى تتمثل في الرموز الإشارية ، تداولية من الدرجة الثانية هي دراسته لتقنية تعبير القضايا في الجملة المتلفظ بها ،تداولية الدرجة الثالثة تتمثل في نظرية أفعال الكلام » للتوسع،ينظر،فرنسواز أرمينيكو،المقاربة التداولية ،ترجمة سعيد علوش، الرباط، المغرب، 1986م،ص38

[2] لطيف عبد الصاحب الزاملي ،إشارية البنى المطلقة ،مجلة القادسية في الأدب و العلوم التربوية ،العدد1 المجلد8، 2009م ،ص21/22.

[3] مريم فرنسيس،في بناء النص دلالته"محاور الإحالة الكلامية"منشورات وزارة الثقافة،دمشق،1998م، ص18/19

[4] فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية ،ص 44 .

[5] باديس لهويمل ،السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم -متابعة تداولية - ،مجلة المخبر،أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري ،جامعة بسكرة، العدد 9، 2013م،ص165

[6] عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية،دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2004م، ص 81

[7] لطيف حاتم عبد الصاحب، إشارية البنى المطلقة ،ص22

[8] جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار العربية للعلوم ،الرباط، ط1، 2010م، ص27.

[9] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص82.

[10] حافظ اسماعيل علوي،التداوليات"علم استعمال اللغة"،عالم الكتب الحديث ،الأردن،2011م،ص242

[11] المرجع السابق ،ص ن

[12] جورج يول،التداولية، ترجمة قصي العتابي،دار العربية للعلوم ،الرباط، ط1، 2010 م ،ص 39 . *__التعريف بالديوان:__ يعد ديوان "الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق" الصادر عام1989م؛أحد الدواوين الشعرية ذات الطابع السياسي التي نظمها نزار قباني، وهو يقع في الجزء السادس من سلسلة الأعمال السياسية الكاملة، يتألف الديوان من ثلاث و عشرين عنوانا موزعة على مائة و ثلاث و ستين صفحة، و الفترة التي كتبت فيها هذه القصائد و الموضوعات هي فترة الثمانينيات.

*__التعريف بالشاعر__: نزار قباني شاعر عربي. و في دمشق (سور) يوم 21مارس عام 1923 من عائلة دمشقية حصل على البكالوريا من مدرسة الكلية العلمية الوطنية بدمشق، ثم التحق بكلية الحقوق لجامعة السورية وتخرج فيها عام 1945 عمل بعد تخرجه في السلك الدبلوماسي،وتركه في ربيع 1966، وتفرغ للشعر .وكانت ثمرة مسيرته الشعرية إحدى وأربعين مجموعة شعرية ونثرية،، وافته المنية في لندن يوم 1998/04/30م عن عمر يناهز 75 عاما ،قضى منها أكثر من خمسين عاما في الحب و السياسة و الثورة.ينظر:حبيب بوهرور ،تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، ص214-219

[13] ذهبية حمو الحاج،لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب،دار الأمل،تيزي وزو،ط2012،2م، ص 124

[14] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص84

[15] جورج يول، التداولية، ص 40

[16] نزار قباني،ديوان الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق، منشورات نزار قباني بيروت .لبنان، ط4 ،1998م ص78/76

[17] جورج يول، التداولية، ص 33

[18] الديوان، ص ن

[19] الديوان،ص14

[20] الديوان، ص82/81

[21] الديوان، ص 111

[22] غيداء أحمد سحنون شلاش ،المكان و المصطلحات المقاربة له – دراسة مفهوماتية- مجلة أفاق، كلية الأساسية العدد2، المجلد 11، 2011، ص249

[23] الديوان، ص111

[24] يوسف سليمان الطحان، الفضاء في القصة القرانية، كلية التربية الأساسية، جامعة الموص، المجلد 10، العدد1، 2010، ص 260

[25] كلثوم مدقن ،دلالة المكان فبي رواية موسم الهجرة إلى الشمال " الطيب صالح"، الأثر مجلة الآداب و اللغات، جامعة ورقلة، الجزائر،العدد4، ماي 2005م، ص 141

[26] الديوان، ص103

[27] الديوان، ص 113

[28] الديوان، ص 135

[29] كلثوم مدقن، دلالة المكان في رواية موسم الهجرة، ص 142

[30] ينظر المرجع السابق، ص144

[31] الديوان، ص 105

[32] الديوان، ص 108

[33] الديوان، ص 108

[34] يوسف سليمان الطحان، الفضاء في القصة القرآنية، ص258

[35] الديوان، ص 109

[36] الديوان، ص111

[37] محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،دار المعرفة المصرية 2006 م، ص 19

[38] المرجع السابق، ص21

[39] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 83

[40] الديوان، ص 53

[41] - الديوان، ص36

[42] الديوان، ص 80

[43] الديوان، ص 83

* للوقوف على حيثيات الحادثة التاريخية يمكن الرجوع لبعض المراجع التاريخية مثل: عبد الرحمن علي المحي التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القيم بيروت، ط2، 1981م .

[44] المرجع نفسه، ص 568

[45] رابح لطرش، مفهمو الزمن في الفكر و الأدب، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة فرحات عباس، سطيف العدد2، مارس 2006م، ص56

[46] الديوان، ص 134.

* «قسم بنفنست Benveniste الزمن في علاقته بالمتكلم إلى ثلاثة أقسام هي : الزمن الطبيعي، الزمن التاريخي وزمن الحدث»للتوسع ينظر:ذهبية الحاج حمو،لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب،ص116 وما بعدها.

[47] المرجع السابق، ص116

[48] الديوان، ص103

[49] نزار قباني ،قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت ،لبنان، ط1، ص 26